مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية ، م٧ ، ص ص ٢٠٧ - ٢٤٠ (١٤١٤هـ/١٩٩٤م)

الإحكام المعجز في بلاغة القرآن

محجوب الحسن محمد

أستاذ مساعد ، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة الملك عبدالعزيز ، جدة

المستخلص . هذه دراسة موجزة لإلقاء الضوء على البلاغة القرآنية وإحكامها المعجز . ويظهر القرآن دقة وإحكاما لا يستطيع أي كاتب أن يحاكيها دعك من أن يتفوق عليها .

يحاول الكاتب أن يبرهن هذه النقطة بالتركيز على المفردات القرآنية والجمل ، لافتًا الانتباه إلى اللحن الإيقاعي للآيات .

وهناك العديد من الدراسات السابقة والكتب التي تناولت الموضوع نفسه ، إلا أن هناك من اللآلِيء اللغوية في القرآن ما يحتاج لاستخلاصه .

يقول تعالى : ﴿الٓرۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(١) . ويقول تعالى : ﴿ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ﴾(٢) .

مقدمة

القرآن الكريم كتاب محكم ، ومنهل عذب ، ومعين زاخر صاف . ومعجزة خالدة أبد الدهر ، أيد الله بها الرسول صلى الله عليه وسلم . لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد . لا

---

(١) هود : الآية الأولى

(٢) آل عمران : الآية ٥٨ .

تحصى علومه ، ولا تستقصى معانيه . ومن عجائبه أنه جمع بين الإعجاز والبيان ، فجاء نظمه بناء محكما متلائم الأجزاء ، في أتم تأليف وأروع تركيب ، فأعجز البلغاء والفصحاء ، وبلغ شأوا لم يبلغه كتاب آخر . وتميز بقوة ألفاظه وسلامتها ومتانة التعبير ولطافته ، وروعة الأسلوب وجاذبيته ، مما أذهل العرب الذين عاصروا نزوله في وقت قد بلغوا فيه القمة في الفصاحة والبلاغة . فلما سمعوا القرآن وقفوا مذهولين حيارى أمام بلاغته وبيانه . ولم يكن في وسعهم أكثر من أن يصفوه مرة بالسحر وتارة بالكهانة ، وطورًا بكلام الجن . ولم يكن في وسع أرباب البلاغة والبيان منهم ، إلا أن يشهدوا بإعجازه وأن يعترفوا بعلوه وسموه على غيره من الكلام .

فهاهو ذا عتبة بن ربيعة يوفده قومه ، قريش ، لإثناء الرسول صلى الله عليه وسلم عما جاء به ، فيرجع إليهم بغير الوجه الذي ذهب به ، بعد سماع آيات بينات من سورة فصلت قرأها عليه النبي صلى الله عليه وسلم .

والوليد بن المغيرة يشهد للقرآن بأن له لحلاوة ، وأن عليه لطلاوة ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه . وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول ، في إحدى الروايات ، فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام(٣) . وأبو عبيدة(٤) يذكر أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾(٥) . فسجد ، وقال : سجدت لبلاغته .

والقرآن نفسه يتحدث عن تأثيره في القلوب الحية ، فيقول عز وجل : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾ الآية .

إن قضية الإعجاز القرآني قضية قديمة ترجع في أصولها ، إلى أوائل نزول القرآن ، حينما اخترق ببيانه وروعة أسلوبه قلوب العرب الأوائل . وتمكن من هذه القلوب والعقول ، وتحدى المعاندين بأن يأتوا بمثله متدرجا في تحديه . وظل هذا التحدي باقيا على الزمن ، إلى قيام الساعة .

ولما ثبت أن القرآن معجز وأن إعجازه غير مقصور على الذين عاصروا نزوله ، أحس علماء المسلمين بضرورة البحث عن أسباب هذا الإعجاز وأسراره . فانكبوا على دراسة القرآن في مجالات

---

(٣) وفي رواية أخرى أنه قرأ في بيت أخته آيات من سورة طه فقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . راجع : السيرة النبوية **لابن هشام** :٢٢٩/١ - ٢٣٤ ، والسيرة النبوية **لابن كثير** : ٣٢/٢ - ٣٨ .

(٤) أبو عبيدة معمر بن المثنى صاحب كتاب « المجاز » الذي ألفه من أجل مسألة تتصل بالتشبيه . وله كثير من الاشارات إلى فنون البلاغة راجع : مناهج بلاغية ، ص ص ٦٣ - ٨٦ .

(٥) الحجر : ٩٤ .

(٦) الزمر : من الآية ٢٣ .

متعددة . ومن الحقائق المعلومة أن علوم العربية ؛ كالنحو والصرف واللغة وغيرها نشأت في خدمة القرآن الكريم .

والبلاغة واحدة من هذه العلوم التي كانت فكرة الإعجاز القرآني هي الموجه الأكبر لنشأتها وتطورها وازدهارها . فقد كان أولى غاياتها البحث في أسلوب القرآن لبيان خصائصه الجمالية ، وروعة تعبيره ، والوصول إلى مناط الإعجاز فيه . فاتجهت الدراسات حول نظم القرآن ، وبديع تأليفه ، وبراعة تصويره . ومن هذه الدراسات ما قام به أبو عبيدة ، والجاحظ(٧) ، وأبو هلال العسكري(٨) ، وابن قتيبة(٩) ، والباقلاني(١٠) ، والرماني(١١) ، والخطابي(١٢) ، وعبدالقاهر الجرجاني(١٣) . ومن علماء هذا العصر الرافعي ، وسيد قطب ، والدكتور أحمد بدوي ، وغيرهم .

---

(٧) هو أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ كبير أئمة الأدب . ولد بالبصرة وتوفي بها . له مؤلفات كثيرة منها « البيان والتبيين » و « الحيوان » . توفي سنة ٢٥٥هـ .
راجع : حاشية البلاغة فنونها وأفنانها ، ص١٧ ، ومناهج بلاغية ص ص ١٦١ - ١٧٠ .

(٨) هو أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل . كان عالما باللغة والشعر والأدب . له مؤلفات كثيرة منها « كتاب الصناعتين » . توفي سنة ٣٩٥هـ .
راجع : كلمة عن حياته في كتاب الصناعتين ، ص ص ٥ - ٨ .

(٩) هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، عالم ولغوي وناقد وكاتب . أصله فارسي من مدينة مرو ، له مؤلفات عديدة ، ولد سنة ٢١٣هـ وتوفي سنة ٢٧٦هـ ، « من : حاشية البلاغة وفنونها وأفنانها ، ص ص ٧١ - ٧٢ . وراجع : مناهج بلاغية ص ص ٥٥ - ٥٨ .

(١٠) هو أبوبكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني . وهو قاض من كبار علماء الإسلام ومن الأشاعرة . ولد بالبصرة سنة ٣٣٨هـ وسكن بغداد وتوفي فيها سنة ٤٠٣هـ . ومن أهم كتبه كتاب «إعجاز القرآن » ، من : حاشية البلاغة وفنونها وأفنانها ، ص ٧٣ ، راجع : مناهج بلاغية ، ص ٤٧ .

(١١) هو أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبدالله الرماني . ولد ببغداد سنة ست وتسعين ومائتين وتوفي سنة ست وثمانين وثلاثمائة . أخذ علوم العربية وعلم الكلام عن علماء كثيرين ، وله تصانيف متعددة ومن أهمها « النكت في إعجاز القرآن » ، راجع : « رسالتان في اللغة » ص ص ٥ - ٦ ، وانظر : « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » ص ١٠ وما بعدها .

(١٢) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي . له رسالة في إعجاز القرآن تسمى « بيان إعجاز القرآن » ، تحدث فيها عن فنون البلاغة في القرآن التي أعجزت العالمين . توفي سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة للهجرة . راجع : مناهج بلاغية ، ص ٤٦ .

(١٣) عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني الأشعري الشافعي . نحوي متكلم . وهو من أعظم النحاة الذين أثروا في البلاغة وجهودها . من أشهر كتبه « دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة » . توفي بجرجان سنة ٤٧١هـ ، « من : حاشية البلاغة فنونها وأفنانها ، ص ١٨ ، راجع : مناهج بلاغية ص ص ١٠٢ - ١٠٥ .

وربط هؤلاء العلماء بين معرفة الإعجاز القرآني ومعرفة البلاغة . فمن تمام الإلمام بأسرار القرآن الكريم ، ومعرفة نصوصه ودقائقه معرفة البلاغة التي تعين على ذلك . يقول أبو هلال العسكري (المتوفى سنة ٣٩٥هـ) : « وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن ، من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وما شحنه الله من الإيجاز والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة وجلله من رقيق الطلاوة مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلامتها ؛ إلى غير ذلك من محاسنه التي عجزت الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها »(١٤) . وينقل السيوطي من قول السكاكي (المتوفى سنة ٦٢٦هـ) . « اعلم أن إعجاز القرآن لايدرك تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة ، إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتمرين فيهما »(١٥) .

والبلاغة كما يعرفها صاحب التلخيص أنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته(١٦) .
وهذا يعني أن الكلام البليغ يقتضي أن يكون :
أولا : مطابقا للموضع الذي يطلق فيه وملائما للمخاطبين .
ثانيا : فصيح العبارة باختيار الألفاظ المناسبة .
ثالثا : حسن التركيب ، صحيح البناء ، واضح المعنى .

مقامات الكلام

العرب يقولون لكل مقام مقال . ومقامات الكلام عندهم متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف . ومقام التقديم يباين مقام التأخير . ومقام الحذف يباين مقام الذكر . ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد . ومخاطبة الذكي تباين مخاطبة الغبي . وللكلمات مع بعضها مقامات وأحوال . والناس مختلفون في أحوالهم فيهم العامة وفيهم الخاصة . فما يحسن لمخاطبة طائفة قد لا يحسن لمخاطبة طائفة أخرى . ولكل فن أسبابه الداعية له . وذلك لا يدركه إلا من أوتي ذوقا سليما يدرك به جيد الكلام من رديئه ، يقول الزركشي : « اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح ، والرشيق والارشق ، والجلي والأجلى ، والعلي والأعلى من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق ... وليس كل من اشتغل بالنحو أو باللغة أو بالفقه كان من أهل الذوق ، وممن يصلح لانتقاد الكلام وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان ، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر ، وصارت لهم بذلك دربة وملكة

---

(١٤) كتاب الصناعتين ، ص ٧ .

(١٥) الإتقان : ١٥٣/٢ .

(١٦) الإيضاح (ضمن شروح التلخيص) : ١٢٢/١ .

تامة ، فإلى أولئك ينبغي أن يرجع في معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض »(١٧) .

مقام تأكيد الكلام

والقرآن الكريم يراعي هذه المقامات حق رعاية ، فحين يقتضي المقام – على سبيل المثال – تأكيد الكلام يؤكده بما يناسبه ، فقد يؤكده بمؤكد واحد ، ، أو بمؤكدين أو أكثر من ذلك . والتأكيد فيه لا يأتي عبثًا ، ففي مقام الفزع والخوف والاضطراب يقول لسيدنا موسى عليه السلام ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى﴾(١٨) . يؤكد الكلام له بإن والضمير تأكيدا يبعث الاطمئنان والثقة بمعية الله سبحانه وتعالى ، وتقرير غلبة موسى عليه السلام . فهو في حاجة إلى ذلك . فجاء الكلام موافقا لحاله ، مؤكدا بكلمتين بمنزلة الفريدة من العقد إذا خلا التعبير من إحداهما انتفت الفائدة وانهدم البناء المحكم المتماسك الأجزاء . وللتأكد من ذلك قل « إنك الأعلى » أو قل « أنت الأعلى » وانظر كيف ينزل الكلام عن مرتبته الرفيعة وحسن إحكامه وحسن موضعه وجمال موقعه .

وهذا ما نجد نظيره في قول إخوة يوسف عليه السلام ﴿ قَالُوا أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ﴾ الآية(١٩) استعظاما وتعجبا من حالهم لعدم معرفته مع ترددهم عليه ، ولذلك ساغ أن يأتي تعبيرهم مؤكدا .

ويتفاوت التأكيد في الكلام بحسب الداعي وقوة الحاجة إليه . إن قوة الإنكار – مثلا – نلحظها في مخاطبة رسل سيدنا عيسى عليه السلام أصحاب القرية . يقول تعالى : ﴿ واضْرِبْ لَهُم مَثَلًا أَصْحَابَ القَرْيَةِ إِذْ جَاءَها المُرْسَلُونَ ۞ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ ۞ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۞ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (٢٠).

فهذا من رشيق الكلام وبديعه ، حاز من البلاغة على نكت غزيرة ومحاسن جمة . فبعد أن كذب أصحاب القرية الرسولين خاطبهم الثلاثة فقالوا : ﴿ إنا إليكم مرسلون ﴾ فأكدوا لهم الكلام بإن واسمية الجملة . ولما اشتد الإنكار قالوا لهم : ﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ أكدوا الكلام بإن واللام واسمية الجملة ، فكثرت التأكيدات لمبالغة المخاطبين في الإنكار . وقد ورد في الإتقان أنه إذا اجتمعت إن واللام كان بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات لأن إن أفادت التكرير مرتين ، فإذا دخلت اللام صار ثلاثا . وورد فيه أيضا أن ابن جنى قال : كل حرف زيد في كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى(٢١) .

---

(١٧) البرهان في علوم القرآن : ١٢٤/٢ .

(١٧) طه : ٦٨ .

(١٩) يوسف : من الآية ٩٠ .

(٢٠) يس : الآيات ١٣ – ١٦ .

(٢١) الإتقان : ٨٤/٢ و ٨٥ .

فمن محاسن الكلام وروعته ، مجيء هذه المؤكدات الكثيرة التي طلبها المقام . وبها يستقيم المعنى ، وترتبط الجملة مع بعضها ، ولو أسقط منها واحد يصبح الكلام مفككا ، ولا يتحقق المعنى . فقد روى أن خلفا الأحمر(٢٢) قال لبشار(٢٣) في بيته .

بَكِّرا صَاحِبِيَّ قَبْلَ الهَجِيرِ   إنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

قال خلف : لوقلت يا أبا معاذ مكان : « إن ذاك النجاح في التبكير » : « بكرا فالنجاح في التبكير » كان أحسن . فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية فقلت : « إن ذاك النجاح في التبكير » كما تقول الأعراب البدويون . ولو قلت : «بكرا فالنجاح» لكان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذاك ولا يدخل في معنى القصيدة . فقام خلف فقبل عينيه(٢٤) .

ففي بيت بشار ربط حرف التوكيد « إن » بين الجملتين وكأنهما أفرغا في قالب واحد وسبكا سبكا منتظما . وهنا لا يصح الإتيان بالفاء . يقول الشاعر :

فَغَنِّهَا فَهي لَكَ الفِدَاءُ   إنّ غِنَاءَ الإبِلِ الحُدَاءُ

ويقول تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾(٢٥) . ويقول تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ الآية(٢٦) . حرف التوكيد « إن » يؤدي ما تؤديه الفاء العاطفة ، بجانب أن الجملة قبلها ترتبط بما بعدها وتأتلف معها وتتحد في كلام متصل دون أدنى انقطاع . والأمر هنا على تقدير سؤال كأنه قيل : لم أمروا أن يتقوا ، فقيل إن زلزلة الساعة شيء عظيم . وكأنه قيل : هل صلاة الرسول سكن لهم فقيل إن صلاتك سكن لهم . فجاءت « إن » في موضعها اللائق وهو مزج الجملتين مزجا واحدا مما أكسبهما تأكيدا قويا .

ومن لطيف المواقع وروائع الكلام وضع المضمر موضع المظهر ، وهذا يشتمل على أسرار بلاغية ولطائف بديعة ومعان عجيبة مثل قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

---

(٢٢) هو خلف بن حيان بن محرز البصري المعروف بالأحمر ، أحد رواة اللغة والشعر ، كان يصنع الشعر وينسبه إلى العرب . وكان ناقدا . توفي سنة ثمانين ومائة . راجع : بغية الوعاة : ٥٥٤/١ .

(٢٣) هو أبو معاذ ، بشار بن برد العقيلي الشاعر ، ولد سنة ٩٥هـ . أصله من طخارستان . كان ضريرا نشأ في البصرة وقدم بغداد . أدرك الدولتين الأموية والعباسية . اتهم بالزندقة . مات سنة ١٦٧هـ .

(٢٤) دلائل الإعجاز ، ص ٢١١ .

(٢٥) الحج : الآية الأولى .

(٢٦) التوبة : من الآية ١٠٣ .

يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور﴾(٢٧) .

انظر إلى ضمير الشأن أو القصة في « إنها » ، وتمعن في قيمة التعبير به . فهو يأتي في صدر الجملة الخبرية للدلالة على رغبة المتكلم في أن يستعظم السامع كلامه ويفخمه . ونراه في الآية يحقق هذا الهدف ، في وروده لقصد المبالغة والتعظيم ، لبيان أهمية ما بعده والعناية به ، لكي يتمكن من النفس ويستقر فيها . وإن هذه الفوائد تذهب فخامتها وروعتها ، ويذهب معها الأثر النفسي الذي يتداعى إلى النفس عند سماع الآية ، إذا جاء الكلام خاليا من ضمير الشأن فقلنا «إن الأبصار لا تعمى» .

ويؤيد ذلك ما ذهب إليه عبدالقاهر الجرجاني في قوله : إن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان أفخم له من أن يذكر من غير تقديم إضمار . ويدل على صحة ما قالوه أنا نعلم ضرورة في قوله تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ فخامة وشرفا وروعة لا نجد منها شيئا في قولنا : فإن الأبصار لا تعمى . وكذلك السبيل أبدا في كل كلام كان فيه ضمير قصة . فقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾(٢٨) يفيد من القوة في نفي الفلاح عن الكافرين ما لو قيل : إن الكافرين لا يفلحون(٢٩) .

وهناك أيضا ضمير الفصل الذي يأتي في الكلام ليفيد الحصر والاختصاص والتأكيد كقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾(٣٠) .

ذكر اسم الإشارة ، وهو المسند إليه ، مرتين في الآية . وهذا الذكر لزيادة الإيضاح والتقرير ، ولتأكيد اختصاصه بالمسند ، فكأنه يقول : هؤلاء الذين ثبت لهم الهداية ثبت لهم الفلاح واختصوا به دون غيرهم .

فانظر كيف ارتقى المعنى باسم الإشارة وضمير الفصل الذي أفاد التأكيد والتخصيص . ولو حذف ضمير الفصل – مثلًا – وقيل « أولئك المفلحون » ، تضعف قوة الكلام ، ويقل في دلالته على المعنى وفي تثبيت الحكم .

مقام الفزع والخوف

ويستخدم القرآن ألفاظًا تبعث الفزع والخوف ، وتستدعي الوقوف والتأمل عندما يتطلب

---

(٢٧) الحج : ٤٦ .

(٢٨) المؤمنون : ١١٧ .

(٢٩) دلائل الإعجاز : ١٠٢ .

(٣٠) البقرة : ٥ ، لقمان : ٥ .

المقام ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾(٣١) . فدل ذلك على معنى المجازاة والعذاب من إلّه قادر متمكن من القدرة ، ولا ترد قدرته ، فجاء التعبير مناسبا ومتسقا مع المعنى المراد ، فقوة المعنى استدعت قوة الألفاظ وقوة التركيب . وكل لفظة جاورت أخرى في جنسها .

مقام الاستعطاف

وحين يتطلب الموقف الاستعطاف والملاطفة وإثارة الوجدان يقول تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ ﴾ الآية(٣٢) .

انظر بتمعن إلى التعبير وطريقته المختلفة عن الآية السابقة . وتمعن في ما بين الخطابين من التفاوت بسبب ما نجده هنا من الرقة والرحمة وحسن الاستدراج . فقد استدعى المقام ألفاظا من نوع آخر مطابقة للمعنى المراد ، ألفاظا تستدعي الأدب مع الأب واحترامه ، وتستدعي العطف واللين والقبول ، في أسلوب أدعى إلى الانقياد حين يخاطب إبراهيم أباه بهذا النداء المحبب للنفس المرغب لفعل الخير فيقول : « يا أبت » ثم يقول : « إني أخاف » فأي كلام مؤثر في قلب الأب أكثر من هذا !؟ ثم يعقب ذلك بقوله « أن يمسك عذاب من الرحمن » فعبر بالمس دون الإحراق ، ونكر العذاب ومال بجناحه إلى الاستعطاف فاستخدم لفظ « الرحمن » . وفي كل يؤثر اللفظ الرقيق للمعنى الرقيق الذي يكون له وقع في النفس ، ويليق بالمقام .

فهذه جملة من الآيات القرآنية تناسب مقاماتها وما جاءت من أجله . وإن المطابقة والملاءمة لمقتضى الحال تستدعي وضوح المعنى وصحته وفصاحة ألفاظه . وبغير ذلك لا يكون الكلام بليغا . فالفصاحة شرط في بلاغة الكلام . كما يقول الجاحظ : « لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك » .

وعلى هذا ، فالكلام عند البلاغيين يقوم على ثلاثة أشياء : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم(٣٤) . وإذا تأملت آيات القرآن تجد هذه الأشياء في غاية الشرف والفضيلة . ألفاظه أفصح ألفاظ وأجزلها ، وعباراته في الطرف الأعلى من البلاغة ، في عذوبة وتناسق وترابط لا يدانيه كلام آخر . وإن دراسة التركيب القرآني أو الجملة القرآنية تتصل اتصالا مباشرا بالمفردة القرآنية لأن المفردة أساس التركيب والجملة . وتتميز الجملة القرآنية بمميزات بلاغية مهمة منها :

---

(٣١) القمر : ٤٢ .

(٣٢) مريم : من الآية ٤٥ .

(٣٣) البيان والتبيين ١/١١٥ ، وراجع أيضا : أسرار البلاغة ١١٨ و ١٢٢ — ١٢٣ .

(٣٤) الإتقان : ٢/١٥٤ .

١ – تناسب الألفاظ ودلالتها على المعنى .
٢ – اتساق الكلمات وانتظامها انتظاما كاملا مع المعنى وترابطها مع بعضها .
٣ – جاذبية النغم وحلاوته وانسجام الإيقاع لفظا ومعنى .

هذه مميزات انفرد بها أسلوب القرآن إذ إنه يرد وفق موازين معينة يتطلبها المعنى ولا يتطلب غيرها . فالقرآن معجز في جمال ألفاظه وحسن نظمه وجمال معانيه وأثره في النفوس . وهذا يستدعي الحديث أولا عن المفردة القرآنية ثم التركيب أو الجملة ؛ لأن معرفة المفرد تسبق معرفة المركب .

المفردة القرآنية : مزاياها ومحاسنها

ليس الحسن للألفاظ وحدها مجتمعة أو متفرقة ، وإنما في تعاضدها وتفاعلها وتآلفها في تأدية المعنى ، بحيث يأخذ كل منها نصيبه في البلوغ بالتعبير البياني منزلة رفيعة . ولأجل ذلك فإننا نجد العرب قد اهتموا بالألفاظ ، ووضعوا لها شروطا لتؤدي المعنى المراد كاملا برشاقة ، ووقع في النفس . وتحتل اللفظة عندهم مكانة سامقة في العمل الأدبي لتسهم داخل العبارة في نقل الأفكار والأحاسيس . وإن قوة المعنى عندهم تتطلب قوة الألفاظ . ولا يكون التفاضل بين الكلمات لذاتها ، وإنما يكون ذلك في موقعها من الجملة . يقول عبدالقاهر الجرجاني : « الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة . وإن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التي تليها »(٣٥) . ويقول : « والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه في التركيب والترتيب »(٣٦) .

إن المقاييس والموازين التي قننتها العرب لألفاظها تهدف إلى تحصين المعاني وسلامتها وإبانتها . ولكن قد يشتبه على بني البشر اختيار بعض الألفاظ ، ويخفى عليهم المفاضلة بينها . وقد فطن الجاحظ لقضية التركيب الفني في الكلام وعلاقة الألفاظ ببعضها فقال : « وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها »(٣٧) .

إن أفكار البشر ومعانيه تبع لألفاظ اللغة المحصورة وطرق تأليفها وتراكيبها المعهودة . وأما معاني القرآن الكريم فقد سخرت لها الألفاظ تسخيرا ، وجاء التعبير تابعا لها يسير في ركابها .

فالقرآن الكريم يختار من الألفاظ أسلسها وأفضلها مناسبة للمقام . وهو مبرأ ومنزه عن

---

(٣٥) دلائل الإعجاز : ص ٣٨ .

(٣٦) أسرار البلاغة : ص ٢ .

(٣٧) البيان والتبيين : ٢٠/١ .

عيوب الألفاظ مثل « الهعخع » ومثل « مستشزرات » عند امرىء القيس و « الجرشي » عند أبي الطيب المتنبي . فإذا قرأنا قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ الآية(٣٨) تجد تآلفا بين الكلمات ، وتجد أنه خص المرضعة دون غيرها ، لأنها أشد شفقة على ولدها ، وأكثر ألفة له . وهي أقرب الناس إليه وأكثرهم معرفة بحاجته واهتماما بحفظه . فالكلمة جاءت في موضعها فأكسبت المعنى براعة وأداء كاملا .

ويختار من الكلمات أصلحها وأفضلها للمقام . فهناك تفاوت في معاني المفردات التي يُظن أنها مترادفة ، وأنها بمعنى واحد ، ولكن بعضها يقصر عن بعض في أداء المعنى المراد مثل : الخشية والخوف ، والبخل والشح والضن . فهل يستقيم أن تضع لفظ الخوف مكان الخشية في قوله تعالى :

١ - ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ الآية(٣٩) .

٢ - ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْه الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ الآية(٤٠) .

وهل يروقك ويؤنسك أن تستخدم لفظ الخشية في مقام الخوف في قوله تعالى :

١ - ﴿ قُلْنَا اهبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤١) .

٢ - ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ والجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ والأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ الآية(٤٢) .

٣ - ﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(٤٣) .

٤ - ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِن جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِن خَوْفٍ﴾(٤٤) .

إن القرآن يستخدم الألفاظ التي تحقق الفائدة وتبني الغرض المقصود بدلالتها على المعنى المراد . واللفظ لا يستخدم من حيث هو لفظ ، بل من حيث دلالته على المعنى . ولأجل ذلك

---

(٣٨) الحج : من الآية الثانية .

(٣٩) الحشر : من الآية ٢١ .

(٤٠) البقرة : من الآية ٧٤ .

(٤١) البقرة : ٣٨ .

(٤٢) البقرة : من الآية ١٥٥ .

(٤٣) الأعراف : ٤٩ .

(٤٤) قريش : الآيتان الثالثة والرابعة .

ورد كل لفظ من اللفظين السابقين في موضعه المناسب ، لما بينهما من فروق دقيقة في دلالتِهما ، ولكل منهما مرتبته . فقد ورد أن الخشية أعلى مرتبة من الخوف ومن ثم خُصَّت بالله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾(٤٥) .

وأما ألفاظ « البخل » و « الشح » و « الضن » فتتفاوت في معانيها أيضا ، لما بينها من فروق معنوية دقيقة . فلما كان البخل يعني الإمساك عما لا يحق حبسه ناسب أن يرد في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ الآية(٤٦) . ولما كان الشح يعني شدة البخل ، والضن يعني البخل بالشيء النفيس قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٤٧) . وقال : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾(٤٨) .

إن كل كلمة من الكلمات السابقة استعملت في موضعها المناسب ، من حيث الغرض والصحة وحسن الكلام ، وتجدها لائقة في موضعها بحيث لا تستبدل بها أخرى . وقد ورد أن ابن عباس قال : الحمد لله الذي قال : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾(٤٩) . ولم يقل « في صلاتهم » . وأن السيوطي قال في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٥٠) . : « على » في جانب الحق و « في » في جانب الضلال . لأن صاحب الحق مستعل يصرف نظره كيف يشاء ، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ضلال منخفض لا يدري أين يتوجه(٥١) .

في الإفراد والجمع

وهكذا ترى القرآن يحكم اختيار ألفاظه ويرعى ما بينها من فروق ، يتبوأ بها من الفصاحة ذروتها ومن البلاغة صهوتها . وأظهر ما يكون ذلك أيضًا في الإفراد والجمع حين يستخدم ألفاظ السماء والأرض والريح وغيرها من الألفاظ . يقول الجاحظ : ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في مواضع العقاب أو موضع الفقر والعجز المدقع الظاهر ... وكذلك ذكر المطر ؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام . والعامة ، وأكثر الخاصة ، لا يفصلون

---

(٤٥) الرعد : ٢١ .

(٤٦) النساء : من الآية ٣٧ .

(٤٧) الحشر : ٩ .

(٤٨) التكوير : ٢٤ .

(٤٩) الماعون : ٥ .

(٥٠) سبأ : ٢٤ .

(٥١) الإتقان : ١٩٠/١ .

بين ذكر المطر وذكر الغيث . ولفظ القرآن الذي عليه نزل إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع . وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين . ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعا(٥٢) .

ويلاحظ أن لفظ **الأرض** لم يرد في القرآن جمعا ، بينما ذكرت السماء والسموات . ولكل منهما مقام لا يليق بالآخر . ولعل السبب في عدم ورود لفظ « أرضين » جمعا يعزى لثقل الجمع نفسه . وعندما أريد ذكر الجمع قال تعالى ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الآية(٥٣) .

وأما لفظ **السماء** فقد أتى بالجمع عندما أريد العدد للدلالة على السعة والعظمة والكثرة فقال تعالى :

١ – ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ الآية(٥٤) .

٢ – ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ الآية(٥٥) .

٣ – ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ الآية(٥٦) .

٤ – ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾(٥٧) ...

٥ – ﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾(٥٨).

وعندما أريد الجهة أتى بلفظ السماء مفردا فقال تعالى :

١ – ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا والسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ الآية(٥٩) .

٢ – ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ والفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ من مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْض لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٦٠) .

---

(٥٢) البيان والتبيين : ٢٠/١

(٥٣) الطلاق : من الآية ١٢ .

(٥٤) البقرة : من الآية ١٠٧ .

(٥٥) البقرة : من الآية ١١٧ .

(٥٦) آل عمران : من الآية ١٨٠ .

(٥٧) آل عمران : من الآية ١٩١ .

(٥٨) الأعراف : من الآية ١٨٥ .

(٥٩) البقرة : من الآية ٢٢ .

(٦٠) البقرة : ١٦٤ .

٣ – ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ ﴾ الآية(٦١) .
٤ – ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾(٦٢)
٥ – ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ الآية(٦٣) .

وأما لفظ **الريح** فقد جمع في سياق الرحمة وأفرد في سياق العذاب .

قال تعالى في المفرد :

١ – ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ الآية(٦٤) .

٢ – ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ الآية(٦٥) .

٣ – ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٦٦)

٤ – ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾(٦٧)
٥ – ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾(٦٨)

وقال تعالى في الجمع :

١ – ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٦٩) .

٢ – ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ الآية(٧٠) .
٣ – ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ الآية(٧١) .

---

(٦١) النحل : من الآية ٧٩ .

(٦٢) الرحمن : ٧ .

(٦٣) الملك : من الآية ٥ .

(٦٤) آل عمران : من الآية ١١٧ . .

(٦٥) الإسراء : من الآية ٦٩ .

(٦٦) الأحقاف : ٢٤ .

(٦٧) الذاريات : ٤١ .

(٦٨) الحاقة : ٦ .

(٦٩) البقرة : من الآية ١٦٤ .

(٧٠) الأعراف : من الآية ٥٧ .

(٧١) الحجر : من الآية ٢٢ .

٤ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ الآية(٧٢) .

٥ - ﴿ وَاخْتِلافِ الَّيْلِ وَالنَّهارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٧٣) .

وذُكِر أن الحكمة في جمع الرياح للرحمة وإفرادها للعذاب أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والهيئات والمنافع ، فإذا هاجت ريح كسرت سورتها بأخرى فتنشأ ريح لطيفة نافعة فكانت الرحمة رياحا . وأما ريح العذاب فتأتي من وجه واحد ولا معارض لها ولا دافع .

وخرج عن ذلك قوله تعالى في سورة يونس ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي البَرِّ والبَحْرِ حَتَّى إذا كُنتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ الآية(٧٤) والعلة في ذلك أنه جاء على مقابلة ما سبق قوله ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ، وأنه لما كان السياق خاصا بالسفينة فإن الرحمة تحدث بوحدة الريح لا اختلافها . فالسفينة لا تسير إلا بريح واحدة فإذا اختلفت عليها الرياح كان الهلاك . وزيادة على ذلك أنها وصفت بقوله ﴿ ريح طيبة ﴾ .

أرأيت كيف يكون اللفظ القرآني في تناسب واعتدال في القرآن كله . إن إعجاز القرآن في الغاية التي لا غاية فوقها . فقد ورد لفظ الريح مفردا بالمعنى الذي ذكرناه في سبعة عشر موضعا ولفظ الرياح في عشرة مواضع ، وكل ذلك في أربع وعشرين سورة إذا حذفنا التكرار . فليس في طوق البشر أن يكونوا في دقة متناهية ولو اجتمعوا لذلك . يقول العلوي « وهكذا حال الآيات القرآنية فإن فيها لمن تأملها وأمعن نظره وحك قريحته ، أسرارا علمية ولطائف إلهية يدريها من أدمن فكرته فيها ، وأتعب قلبه وخاطره في أسرار معانيها »(٧٥) .

إن سر الإعجاز القرآني في اختيار الألفاظ الموفية بالغرض ، يدرك بالذوق السليم ، القائم على التربية ، والاطلاع في لغة العرب وآدابها ، وفهم مذاهبها وطرقها في التعبير . فقد تأتلف لفظة مع لفظة وقد تحسن في وضع ولا تحسن في وضع آخر مثل كلمة « عرض » التي وردت في قول أبي تمام :(٧٦)

بِيَـوْمٍ كَطُول الدَّهْـر فِـي عَـرضِ مَثْلِهِ   ووَجْـدِي فِـي هَـذا وَهَذاك أَطْوَلُ

---

(٧٢) الروم : من الآية ٤٦ .

(٧٣) الجاثية : الخامسة .

(٧٤) يونس : من الآية ٢٢ .

(٧٥) الطراز : ٧٧/٢ .

(٧٦) أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي . ولد سنة ١٩٠هـ بجاسم من قرى حوران بسورية . ونشأ بمصر ، وهو شاعر ، توفي بالموصل سنة ٢٣١هـ . من : حاشية البلاغة وفنونها وأفنانها ، ص ٢٧ .

انتقده الآمدي فقال : فجعل للدهر وهو الزمان عرضا وذلك محض المحال ، وعلى أنه ما كانت إليه حاجة ، لأنه قد استوفى المعنى بقوله : « كطول الدهر » فأتى على العرض في المبالغة ... فكان بهذا اللفظ كأنه يذرع ثوبا أو يمسح أرضا أو يصف بالاجتماع والتدوير رجلا .(٧٧) .

وقد جاءت اللفظة نفسها لائقة ومتناسقة مع المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ الآية(٧٨) . فقد أصابت اللفظة المعنى وأدركت الغرض حين دلت على الانتفاع . يقولون فلان في نعمة عريضة ، وله جاه عريض ، يريدون بذلك السعة . فأنت هنا بإزاء كلمة جاءت فصيحة في موضع ، وركيكة نابية في موضع آخر . والفصاحة ، كما هو معلوم ، عائدة إلى المعنى لا إلى اللفظ ذاته ، فهنا يظهر الفرق بين تركيب وتركيب . اللفظة في القرآن متمكنة غير قلقة ، جيدة السبك ، لا تنفصل عن المعنى ، ولا تزيد عنه ولا تنقص . ألا تحس بأن المعنى هنا يفتقر إليها ، وأن لها غرضا ومقصدا به يتم التشوق والتطلع إلى الجنة ونعيمها ، خاصة وأن القرآن قد أخبر بعرضها فكيف بطولها . أورد ابن كثير من مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم : إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار ؟(٧٩) .

صيغ المبالغة

وهكذا تجد القرآن يتخذ لكل ضرب من الحديث ضربا من اللفظ نصل به إلى المعنى المقصود . وإذا أردت أن تتذوق هذه الفروق العجيبة فاستمع إلى قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ❁ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴾(٨٠) .

كلمة « نزاعة » من صيغ المبالغة على وزن فعّال ، استدعت البلاغة استعمالها ، دون غيرها من الصيغ ، لأنها مع إفادتها المبالغة ، فهي تفيد الاستمرار والتجدد والتكرار . وتدل على الصنعة والملازمة . فإذا فعل الفعل وقتا بعد وقت قيل فعّال مثل علّام وصبّار يقول تعالى : ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾(٨١) . أي أنه تواب رحيم يقبل التوبة ، وقوله تعالى : ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(٨٢) أي أنه مستمر على

---

(٧٧) الموازنة : ص ص ١٧٦ — ١٧٨ .

(٧٨) آل عمران : من الآية ١٣٣ .

(٧٩) تفسير ابن كثير : ٤١٣/١ .

(٨٠) المعارج : الآيتان ١٥ و ١٦ .

(٨١) نوح : ١٠ .

(٨٢) إبراهيم : من الآية ٣٤ .

ذلك يزاوله ويعانيه ويجدده . وقوله : ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(٨٣) وهي التي تكثر من لوم صاحبها كلما فعل فعلا يستحق عليه اللوم .

الجملة الفعلية والاسمية

ومن المعلوم أن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث والاسمية تفيد الثبوت ، فعندما يكون الموقف موقف استمرار وتجدد يستخدم القرآن صيغ الأفعال فيقول عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ من السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية(٨٤) . هنا عدل عن اسم الفاعل « رازق » واستخدم المعنى مع الفعل الذي يفيد تجدد الرزق شيئًا بعد شيء ، ولو استخدم اسم الفاعل « رازق » لفاتت هذه الفائدة .

وعندما يستدعي الموقف الثبوت يستخدم الاسم كقوله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالوَصِيدِ ﴾ الآية(٨٥) فهذه جملة اسمية خبرها مفرد تدل على الثبوت . عبر عن ثبوت الصفة باستعمال اسم الفاعل (باسط) وهو أنسب لبيان هيئة الكلب الذي لم يبد منه حراك وهو في فناء الكهف . ولا يخفى أنه كان في حالة لا حركة فيها . ولذا فإن استخدام الفعل المضارع لا يناسب المقام ، ولا يؤدي المقصد المراد لأنه يدل على مزاولة الكلب للبسط وعلى تجدده مرة بعد أخرى .

اتساع المفردة القرآنية لمعان متعددة

والمفردة القرآنية يتسع مدلولها حين تستعمل في عدة معان مختلفة ؛ كلفظ الأمّة بمعنى الجماعة كقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ﴾ الآية(٨٦) ، وقوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٨٧) ، أي قائما مقام جماعة ، وأمة كل نبي أتباعه . وقوله ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ الآية(٨٨) أي جماعة . وبمعنى الحين في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ الآية(٨٩) أي بعد حين ، وبمعنى الدين في قوله

---

(٨٣) القيامة : الاية الثانية .

(٨٤) فاطر : من الآية الثالثة .

(٨٥) الكهف : من الآية ١٨ .

(٨٦) آل عمران : من الآية ١٠٤ .

(٨٧) النحل : ١٢٠ ، راجع : اتفاق المباني واختلاف المعاني ، ص ٢٣٤ .

(٨٨) آل عمران : من الآية ١١٣ .

(٨٩) يوسف : من الآية ٤٥ .

تعالى ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ الآية(٩٠) أي على دين مجتمع . ويروي بيت النابغة(٩١) .

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً   وَهَلْ يَأْثَمَنَّ ذُو أُمَّةٍ هُو طَائِعُ

وقد تعرض كل من الزركشي والسيوطي وغيرهما للألفاظ المشتركة التي تستعمل في عدة معان ، وقد جعلها بعضهم – كما يقولان – من أنواع معجزات القرآن « حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجها أو أكثر أو أقل » ولا يوجد ذلك في كلام البشر(٩٢) . وضربا أمثلة منها لفظ « الهدى » الذي يأتي على سبعة عشر وجها ، ومعانيها – كما عند السيوطي : الثبات – البيان – الدين – الإيمان – الدعاء – الرسل والكتب – المعرفة – النبي – القرآن – التوراة – الاسترجاع – الحجة – التوحيد – السنة – الإصلاح – الإلهام – التوبة(٩٣) .

هذه الوجوه المتعددة لمعاني الكلمة الواحدة تأتي في ألفاظ كثيرة في القرآن الكريم . والمعمول فيها على السياق الذي ترد فيه . ففيها دلالة على إعجاز القرآن وإحكام ألفاظه التي تتجدد فيها دلالة اللفظة الواحدة من خلال النص .

ومثال ذلك أيضًا كلمة « رأى » تكون بمعنى العلم والظن والرأي والرؤية(٩٤) .

ففي معنى العلم قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾(٩٥) . وقوله تعالى : ﴿أَن رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(٩٦) . وقوله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ الآية(٩٧) .

وفي معنى الظن : قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۞ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾(٩٨) الدليل في يرونه ؛ فالكفار يشكون في يوم االقيامة ويرونه بعيدا ، والله وحده سبحانه وتعالى هو الذي يعلمه ، وقوله ﴿ نراه ﴾ يعلم قربه ووقوعه .

---

(٩٠) الزخرف : من الآية ٢٢ .

(٩١) راجع : رواية البيت في اتفاق المباني واختلاف المعاني ، ص ٢٣٥ .

(٩٢) الإتقان : ١٨٥/٢ .

(٩٣) الإتقان : ١٨٥/٢ و ١٨٦ .

(٩٤) انظر : اتفاق المباني واختلاف المعاني ، ص ص ٢٠٨ – ٢١٠ . وراجع : كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر ، ص ص ٨٦ و ٨٧ .

(٩٥) الكهف : ٣٩ .

(٩٦) العلق : ٧ .

(٩٧) البقرة : من الآية ١٢٨ .

(٩٨) المعارج : ٦ و ٧ .

وفي معنى الرؤية بالعين : قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ الآية(٩٩) وقوله تعالى : ﴿وَ إِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ .(١٠٠)

وفي معنى الاعتبار : قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ﴾ الآية(١٠٢) .

وفي معنى السماع : قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ الآية(١٠٣) .

وفي معنى العجب : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية(١٠٤) . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا ﴾الآية(١٠٥) .

وفي الإخبار : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الآية(١٠٦) وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾ الآية(١٠٧) وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾(١٠٨) .

ولنخرج من التمثيل بالاسم إلى الفعل ولنأخذ – على سبيل المثال – الفعل ضرب لنرى اتساع التعبير فيه ، والفوائد الجمة ، الناشئة من تغيير دلالته حسب السياق ، ليستوعب المعنى المقصود .

يستخدم القرآن هذا الفعل لضرب الأمثال فيقول عز وجل : ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ الآية(١٠٩) . ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ الآية(١١٠) .

ويستخدمه في السعي أي السير فيقول تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ واللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ والنَّهارَ عَلِمَ أن لَن تُحْصُوه فتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا

---

(٩٩) المنافقون : من الآية ٤ .

(١٠٠) الإنسان : ٢٠ .

(١٠١) النحل : من الآية ٧٩ .

(١٠٢) الملك : من الآية ١٩ .

(١٠٣) الأنعام : من الآية ٦٨ .

(١٠٤) النساء : من الآية ٤٩ .

(١٠٥) النساء : من الآية ٦٠ .

(١٠٦) البقرة : من الآية ٢٤٦ .

(١٠٧) البقرة : من الآية ٢٤٣ .

(١٠٨) الفيل : الآية الأولى .

(١٠٩) النحل : من الآية ١١٢ .

(١١٠) الحج : من الآية ٧٣ .

مَا تَيسَّرَ مِنْ القُرآن عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ ﴾ الآية(١١١) ﴿ وَإذا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ ﴾ الآية(١١٢) .

ويستخدمه في المجاز ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾(١١٣) كما يستخدمه للضرب المعروف باليدين فيقول تعالى : ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ ﴾ الآية(١١٤) ويقول : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى المَلائكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلقِي فِي قُلُوبِ الَّذينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ واضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾(١١٥) .

وغير ذلك كثير في القرآن الكريم . فقد حوى من الأسرار البلاغية المعجزة التي لا يستطيع أحد حصرها . وها نحن أولاء قد رأيناه في هذا القليل من الأمثلة يحكم ألفاظه إحكاما معجزا . ويتخذ لكل ضرب من الحديث ضربا من اللفظ ، ويختار من الكلمات ما له وقع في النفس ، وتمكن من الجملة ، وقوة في الربط بحيث ترد ألفاظه عذبة ، سلسة في التركيب الذي يستلذ له السمع . وسيبدو ذلك أكثر وضوحا عند الحديث عن التركيب القرآني .

تركيب الجملة القرآنية

إن دراسة الآية أو الجملة القرآنية تتصل اتصالا مباشرا بدراسة المفردة القرآنية ، لأن هذه الأخيرة أساس تلك ومنها تركيبها . ولا يحكم على الألفاظ بالبلاغة أو عدمها لذاتها ؛ أي وهي منقطعة عن التركيب وإنما يكون الحكم للتركيب . ولهذا فرق علماء البلاغة بين الفصاحة والبلاغة وجعلوا الفصاحة من صفات الكلمة والكلمات المجتمعة ، بخلو الكلمة أو الكلمات من العيوب كالتنافر والغرابة ومخالفة القياس وضعف التأليف والتعقيد وغير ذلك ، وجعلوا البلاغة من صفات الكلمات ويعنون بذلك إحكام تركيبها ودقة تنظيمها وتناسب مكانها . ولا يكون الكلام بليغا إذا اختلت فصاحته .

ومن يرد موارد القرآن يجد أن جمله بناء أحكمت لبناته ونسقت أجزاؤه أدق تنسيق . يقول الخطابي : « واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم في التأليف

---

(١١١) المزمل : من الآية ٢٠ .

(١١٢) النساء : من الآية ١٠١ .

(١١٣) الكهف : ١١ .

(١١٤) البقرة : من الآية ٦٠ .

(١١٥) الأنفال : ١٢ .

مضمنا أصح المعاني(١١٦) » .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۞ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(١١٧) .

بالآيتين لمحات مضيئة تلقى الضوء على طريقة القرآن التي ترتبط فيها الألفاظ والمعاني ، وتتناسق في توازن يرضي النفس بإحكام المعاني وجمال المباني . فهذه حقائق واقعية ينقلها القرآن في صور متعاقبة ، تبين الاتجاه النفسي للمنافقين الذين يستعذبون أسلوب الخداع والتضليل ، بمقابلة المؤمنين بوجوه المصادقين وتضليلهم بأنهم معهم وعند مفارقتهم ومقابلة غيرهم من المنافقين يصدقون بما في قلوبهم .

وفي الآيتين صور متحركة تحركا حيا في حركات تكاد تشاهد وهمسات تكاد تسمع يقول تعالى : ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ . وهذا مشهد من مشاهد المنافقين ، ومن سياق الجملة تحس بأنه إيمان اتخذ ذريعة وخداعا ونفاقا .

ويأتي المشهد الثاني مناقضا للأول ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ . وهنا يظهر ما كان مكتوما . ويستخدم القرآن فيه لفظ « خلوا » دون « لقوا » الذي سبق ، للدلالة على أنهم يبيحون ما تخفي صدورهم في حال اختلائهم بمن هم على شاكلتهم . ويظهر هنا الفرق بين مخاطبتهم المؤمنين ومخاطبة غيرهم من المنافقين . فقد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث « آمنا » ، بينما خاطبوا أصحابهم بالجملة الاسمية الدالة على تأكيد الثبوت والدوام (إنا معكم) ليظهروا الثابت من اعتقادهم ، فلم يقولوا للمؤمنين « إنا مؤمنون » بينما قالوا للمنافقين « إنا معكم » فأكدوا ثباتهم على الكفر ولم يؤكدوا إيمانهم لأنه كان ادعاء .

وفي قوله تعالى ﴿الله يستهزىء بهم﴾ ثلاث نكات بلاغية أخرى :

أولا : المنافقون قالوا « إنما نحن مستهزئون » فقال تعالى « الله يستهزىء بهم » ولم يقل « مستهزىء بهم » ، لأن الفعل هنا يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتا بعد آخر(١١٨) .

ثانيا : القرآن يستخدم هنا أسلوب الفصل دون الوصل لئلا يكون قوله : « الله يستهزىء بهم » من مقول المنافقين ، ولأن جملة « قالوا » مقيدة بوقت خلوهم إلى شياطينهم ، وجملة « الله يستهزىء بهم » غير مقيدة بهذا القيد ، ولو وصلت لشاركت الثانية الأولى في حكمها وقيدها . وصار المعنى أن استهزاء المنافقين بهم مقيد بوقت خلوهم إلى شياطينهم ، مع أن المعلوم أن استهزاء الله بهم دائم في كل حال ولأجل ذلك وجب استخدام أسلوب الفصل .

---

(١١٦) انظر : بيان إعجاز القرآن ، « ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » ص ٢٧ .

(١١٧) البقرة : الآيتان ١٤ و ١٥ .

(١١٨) الكشاف : ١٨٨/١ .

ثالثا : جاءت الآية على أسلوب المشاكلة ، فأُجرى اسم الشيء على ما هو له ، أي أنه سمى العقوبة باسم الذنب ، فالمراد أن الله سبحانه وتعالى يعاقبهم على ما وقع منهم من الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ الآية(١١٩) . سمى جزاء السيئة سيئة ليشاكل بها لفظ السيئة السابقة . وإن ما يفعله الله عز وجل ليس بسيئة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . فالأولى ذنب والثانية جزاء وعقاب . ولذا قال عز وجل : ﴿فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ أي عفا عن السيئة ولم يقابلها بمثلها .

ومثل ما أطلق فيه العقاب وأريد الجزاء قوله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾(١٢٠) وقوله تعالى ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ الآية(١٢١) وقوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾(١٢٢) .

فأسلوب المشاكلة يفيد معنى آخر لا يناقض الحقيقة التي تنزه الله سبحانه وتعالى عن المشابهة . والمراد فيما سبق إنزال العقوبة ، فسمى عقاب الله لهم مكرا على طريق المشاكلة .

وبأسلوب التشبيه والاستعارة يصور القرآن المعاني التي يهدف إليها أدق تصوير ، وأبلغه وأروعه ، في عبارات تقع في موضعها وتناسب الغرض وتحققه . يقول تعالى : ﴿وَلَهُ الجَوَارِ المُنْشَآتُ فِي البَحْرِ كَالأَعْلَامِ﴾(١٢٣) . هكذا يستمد القرآن تشبيهاته من عناصر الكون ليحقق أهدافه ومعانيه السامية . فهنا شبه سبحانه وتعالى السفن العظيمة بالجبال العظيمة . وأوثر إجراء التشبيه بالأعلام دون الجبال ، بخلاف ما نجده في قوله تعالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالجِبَالِ﴾ الآية(١٢٤) .

ولو أمعنا النظر في التشبيهين ، لبدا لنا التناسق في كل منهما من حيث الدلالة المعنوية والنفسية والشعورية التي يستدعيها كل منهما في النفس . فلما كان الموج يوحي بالضخامة والجلال ، ويبعث الخوف والرهبة في ذلك الموقف ، لعب التشبيه دورا عظيما وهاما في تصوير حالة أمواج البحر مع سفينة نوح عليه السلام .

---

(١١٩) الشورى : من الآية ٤٠ .

(١٢٠) النحل : ١٢٦ .

(١٢١) الرعد : من الآية ٤٢ .

(١٢٢) الأنفال : ٣٠ .

(١٢٣) الرحمن : ٢٤ .

(١٢٤) هود : من الآية ٤٢ .

والعدول عن الجبال إلى الأعلام ، في تشبيه السفن العظيمة ، يهدف إلى نوع آخر من الإيضاح والتأثير ، لا يتم إلا في ما أجرى به ، حيث أجرى سبحانه وتعالى هذه السفن العظيمة وحركها في البحر بقدرته ، فلفظ الجوار والمنشآت أي « المرفوعات الشرع » يناسبهما التشبيه بالأعلام لأنها بجانب إحضار صورة الجبال العظيمة ، وبيان ملكيته سبحانه وتعالى للكون ، فإنها توحي بصورة أخرى ، لها تأثيرها الرائع في النفس . وهي صورة الانتشار التي يستدعيها معنى آخر لمعنى الأعلام(١٢٥) ، وهي صورة أشرعة السفن وراياتها العالية المنتشرة في البحر هنا وهناك . خاصة وأن الآية استخدمت لفظ المنشآت . فأي صورة أوقع في النفس وأكثر مناسبة للغرض من صورة السفن العظيمة ، ناشرة أعلامها منتشرة هنا وهناك ، تجوب البحار وكأنها في ضخامتها وعلوها جبال عالية . فهذا من لطائف القرآن ودقائق تعابيره المعجزة التي تكشف المعنى المقصود في إيجاز يوفي بالمعنى . وهذا التشبيه بجانب خصائصه الفنية ، فإنه نص أدبي باهر تتجلى فيه أرقى سمات النص الأدبي . وإن إعجازه وبلاغته في هذا التلاؤم وهذا النظم الذي به تؤدي المعاني المقصودة في جمال وقوة ، وتناسق .

ومن الاستعارة قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾(١٢٦) .

هذه استعارة مرشحة ، أجزاء الكلام فيها متلائمة في بناء محكم ، على أتم تأليف وأرشق نظام . لما ذكر الشراء أردفه بذكر التجارة ونفي الربح . فهؤلاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، وكان عليهم أن يتحصلوا على الهدى لينالوا ربحا وافرا ، فقد فاتهم ذلك الربح وما كانوا مهتدين لطرق التجارة . ومن لا يهتدي لطرق التجارة يضيع ماله ولا يكسب ربحا ومن لا يسلك طريق الهدى يصاب بالخسران المبين .

والقرآن معجز أيضا بلطائفه المودعة في الترتيبات والروابط ، فالكلام متصل ببعضه ومرتبط أوله بآخره ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(١٢٧) .

اشتملت الآية على جملة من المجازات والاستعارات كلها متلائمة ومتناسبة مع بعضها ، فاستخدم لفظ القرية للأهل استخداما مجازيا ، واستعار الذوق في اللباس ، واللباس في الجوع ، واللباس في الخوف . وفي ذلك ترتيب في الجمل وتأثير نفسي منبعث من تبدل القرية من حال إلى

---

(١٢٥) انظر : الجمان في تشبيهات القرآن ، ص ٢٩٠ .

(١٢٦) البقرة : ١٦ .

(١٢٧) النحل : ١١٢ .

حال ، وأخضاع للغة لتحقق الهدف المناسب . فلما قدم ذكر القرية وأكسبها وصفا خاصا بذكر الأمن والرغد من الرزق ، أردف ذلك ببيان كفرها بأنعم الله ، ومن ثم أورد ما يلائم ذلك من الجوع والخوف والإذاقة في استعارة رشيقة بنيت على استعارة اللباس في الخوف والجوع مبالغة في الاشتمال والستر .

وفي جمل القرآن التقسيم وهو استيفاء أقسام الشيء بحيث لا يغادر شيئًا . كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ الآية(١٢٨) .

إن العالم كله لا يخلو من هذه الأقسام الثلاثة : إما ظالم لنفسه ، وإما مقتصد وإما سابق مبادر إلى الخير . وهذا من أوضح التقسيمات وأكملها . فهناك سابق يدخل الجنة بغير حساب ومقتصد يحاسب حسابا يسيرا وظالم لنفسه ، قال العلوي : فإنما قدم الظالم لنفسه لأجل الإيذان بكثرتهم وأن معظم الخلق على ظلم نفسه ، ثم ثنى بعدهم بالمقتصدين لأنهم قليل بالإضافة إلى الظالمين ، ثم ثلث بالسابقين وهم أقل من المقتصدين ، فلا جرم قدم الأكثر ، ثم بعده الأوسط ، ثم ذكر الأقل آخرا(١٢٩) .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۞ فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ ۞ وَأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ ۞ والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾(١٣٠) .

وهذه مماثلة للتي قبلها فأصحاب المشأمة هم الذين ظلموا أنفسهم وأصحاب الميمنة هم المقتصدون والسابقون هم السابقون بالخيرات .

ومنه قوله تعالى : ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا ﴾ الآية(١٣١) . وليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار ولا ثالث لذلك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ الآية(١٣٢) . وقوله تعالى ﴿ وَإذا مَسَّ الإنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ الآية(١٣٣) . فلم تترك الآيتان قسما لم تذكره للهيئات . ولكن وقع بين ترتيب الآيتين مغايرة أوجبتها المبالغة . في الآية

---

(١٢٨) فاطر : من الآية ٣٢ .

(١٢٩) الطراز : ٧٤/٢ .

(١٣٠) الواقعة : الايات ٨ — ١٠ .

(١٣١) الروم : من الآية ٢٤ .

(١٣٢) آل عمران : من الآية ١٩١ .

(١٣٣) يونس : من الآية ١٢ .

الأولى المراد بالذكر الصلاة ، فوجب فيها تقديم القيام للصلاة ، ثم يلي ذلك القعود ثم الاضطجاع حسب ما تستدعي الحالة . وأما الآية الثانية فتتحدث عن الإنسان في حالات ثلاث ، فإذا أصابته الشدة والجهد قلق وجزع وأكثر من الدعاء لكشف ما به ورفعه عنه : فهو يدعو في حال اضطجاعه حينما يكون شديد المرض ، وفي حال قعوده عندما يكون المرض أقل شدة ، وحال قيامه عندما يكون المرض أقل شأنا . فإذا زال ما به أعرض ونأى بجانبه(١٣٤) ..

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لله مُلْكُ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وإِنَاثًا وَيَجعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ الآية(١٣٥) .

قسم الله سبحانه وتعالى حالات الرزق بالجنين وعدمه إلى أربعة أقسام . إما أن يهب العبد الإناث أو يهبه الذكور ، أو يجمعهما له ، أو لايهب شيئًا . فانتقل في هذه الأقسام إلى أعلى ، واستخدم لفظ الهبة في العطية وأخر الحرمان وقال فيه (يجعل) فعدل عن لفظ الهبة للتغاير بين المعاني .

والتعبير القرآني يحمل في طياته من أسرار اللغة وبدائع الأسلوب ما لايمكن أن يحل محله تعبير آخر ليؤدي دوره . فما جاء به القرآن من الفنون البلاغية لا يمكن العدول عنه لفن آخر لتبقى تلك الروعة في التعبير البياني . فإذا جاء الكلام مسوقا على سبيل الاستعارة مثلا وأردنا أن نجعله تشبيهًا ، فإن قدره ينزل ويخرج عن ديباجة بلاغته ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ الآية(١٣٦) فلا يستقيم أن تقول : اخفض لهما جانبك الذي هو كالجناح . وقوله تعالى : ﴿ الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ ﴾ الآية(١٣٧) لا يستقيم أيضا أن تقول : يخرجهم من ضلال كالظلمات إلى إيمان كالنور . فإن هذين التعبيرين من الركاكة بمكان ولا مجال لمقارنتهما بالآيتين الكريمتين ، لأن الاستعارة فيهما جاءت معتدلة تتناسب مع ما تدل عليه .

ولأجل ذلك فإن الاختلاف في طريقة نظم الكلام يصحبه اختلاف في المعنى وفي التأثير النفسي . فكل فن في مكانه يتسم بالإبداع والقوة وتتضح فيه المعاني وتقرب للأذهان .

ونظير ذلك من أسرار الإعجاز القرآني ومطابقة الكلام تمام المراد قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾(١٣٨) .

---

(١٣٤) راجع : تفسير الطبري : ١١/٦٦ ، وابن كثير : ٢/٤٢٣ و ٤٢٤ .

(١٣٥) الشورى : من الآيتين ٤٩ و ٥٠ .

(١٣٦) الاسراء : من الآية ٢٤ .

(١٣٧) البقرة : من الآية ٢٥٧ .

(١٣٨) الاسراء : ٤٥ .

وهذا كلام عظيم الموقع في البلاغة فقوله ﴿ حجابا مستورا ﴾ كنز من كنوز البلاغة يورث الكلام حسنا ويكسبه جمالا ، ويعطي المعنى قوة ، فإن إسناد اسم المفعول مستورا إلى ضمير الحجاب ، يوضح ما عليه هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، فهم في حجاب خفي يحجب عنهم فهم القرآن ، وإدراك أسراره كما قال تعالى ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾(١٣٩) . أي مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء . وذكر أن الحجاب المستور أكنة على قلوبهم . ورجح ابن جرير أن الحجاب المستور حجاب بينهم وبين الهدى . وقيل ﴿ حجابا مستورا ﴾ بمعنى ساتر كميمون ومشؤوم بمعنى يامن وشائم لأنه من يمنهم وشؤمهم(١٤٠) .

وتنتفي هذه البلاغة وهذه المعاني القيمة إذا قلنا « حجابا ساترا » . فهو مع ما فيه من الاطمئنان القليل بوجود حائل بين المشركين وفهم القرآن ، لكنه لا يرقى إلى مستوى ﴿ حجابا مستورا ﴾ الذي تتم به الفائدة وإصابة المعنى لأن الحجاب هنا ، قوي كثيف جعل عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم .

الإيقاع البديع

وكما أن القرآن معجز بألفاظه وتركيب جمله وآياته ، فهو أيضا معجز بما له من أثر في النفوس . فهذا الإيقاع البديع والجمال الصوتي والتناسق المتكامل ، هو أول شيء أحست به الأذن العربية ، وانجذبت إليه ، يوم نزل القرآن وتلاه المصطفى صلى الله عليه وسلم . ولم تكن من قبل قد عهدت مثله في منثور الكلام ومنظومه . فالقرآن له نغم يتخلل حروفه وكلماته ، وينتظم جميع أجزائه ، ويستريح لتآلفه السمع والصوت والنطق ، وينبعث من كل ذلك ومن تضامنه نسق جميل يتناسب مع الفكرة . والموضوع الذي تعبر عنه الآيات ، ينطوي على إيقاع رائع وجاذبية نغم ما كان ليتم لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف أو اختلف ترتيبها بأي شكل من الأشكال . يقول الخطابي : « فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في آخر ما يخلص منه إليه ... »(١٤١) ويقول مصطفى صادق الرافعي : « فلما قرئ القرآن ، رأوا حروفه في كلماته ، وكلماته في جمله ، ألحانا لغوية رائعة ، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة »(١٤٢) .

---

(١٣٩) فصلت : ٥ .

(١٤٠) راجع : تفسير الطبري : ١٥/٦٦ ، وابن كثير : ٣/٤٦ .

(١٤١) بيان إعجاز القرآن ص ٧٠ .

(١٤٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢١٤ .

ويقول ابن الأثير : « ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل إليهما ، ويكره صوت الغراب وينفر منه . وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس . والألفاظ جارية هذا المجرى ، فإنه لا خلاف في أن لفظة المزنة والديمة حسنة يستلذها السمع ، وأن لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع ، وهذه اللفظات الثلاثة من صفة المطر . ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العسلوج وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل ، وبين لفظة الأسد ولفظة الفدوكس ، فلا ينبغي أن يخاطب ولا أن يجاوب بل يترك وشأنه »(١٤٣) .

استمع إلى قوله : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ❁ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ❁ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ❁ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾(١٤٤) .

بالآيات توازن في ألفاظها وعباراتها في هذا العطف المتتابع الذي ترتاح له الأذن ويبين المعنى الذي تضمنته الآيات .. تأمل تناسق الكلمات ودقق النظر وأرهف السمع للغنة التي وردت في الآيتين الأوليين ، لترى كيف تدل رناتها ونغماتها على النعمة التي يتقلب فيها هؤلاء القوم . وتأمل كيف تتآلف الحروف والأصوات وتتناوب الحركات الطويلة والقصيرة .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالخُنَّسِ ❁ الجَوَارِ الكُنَّسِ ❁ واللَّيْلِ إذا عَسْعَسَ ❁ والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾(١٤٥) ، لتؤخذ بهمس السين المكررة التي تظلل المشاهد في خفة لها وقعها المؤثر في النفس في اتساق مع المعنى .

وأسلوب الجناس الذي تكلفه بعض الشعراء أمثال أبي تمام ومسلم بن الوليد وأجهدوا أنفسهم في طلبه ، فأبعدوه من الأصالة وأسلموه للتكلف والصنعة ، نجده في القرآن الكريم لا يفقد دلالته المعنوية من أجل الإيقاع ، لأن النغمة الإيقاعية ليست وحدها هي الجديرة بالوقوف عندها كما يتوهم كثيرون ، وإنما تأتي ملازمة في القرآن للمعنى ومبنية عليه . تأمل قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾(١٤٦) . لم يقل فيه « ثمر الجنتين » ... لأن الثمر لا دلالة فيه للالتقاط ، ولكن « جنى » يدل على الثمرة التي تجنى وتؤخذ . وهي بمعنى المجنى . ولهذا كانت أوقع من غيرها وتستهدف غاية لا تحققها لفظة أخرى . وهي — في الوقت نفسه — في نظم ملتئم يكتمل فيه المعنى بكلمة « دان » التي لا يخفى ما فيها من دلالة معنوية وعذوبة نغم . تتلقفها الأسماع لما فيها من حروف متآخية مع الجناس ، إضافة إلى ما تضيفه من أن المجنى قريب المتناول . وذكر

---

(١٤٣) انظر : المثل السائر : ١٤٢/١ و ١٤٣ .

(١٤٤) الدخان : ٢٥ — ٢٨ .

(١٤٥) التكوير : ١٥ — ١٨ .

(١٤٦) الرحمن : ٥٤ .

المفسرون بأنه قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع . ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾(١٤٧) .

والجناس ليس مقصودا لذاته كما كان يفعل بعض الشعراء في عصور الصنعة ، وإنما يرد في القرآن لأجل قوة المعنى وجزالة الألفاظ ، ولهذا تجده قد ترك عند قوة المعنى بتركه في قوله تعالى : ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ﴾(١٤٨) . والجناس يحصل بكلمة تَدعون – بفتح التاء والدال – عند وضعها بدل « تذرون » ولكن المعنى سينهار بالجناس ويكون العدول عنه أولى ليكون المعنى قويا . وخير من وضح ذلك الجويني(١٤٩) الذي ذكر أن يذر أخص من يدع ، وأن يدع يعنى ترك الشيء اعتناء ، بشهادة الاشتقاق ، نحو الإيداع فإنه عبارة عن ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها ، ولهذا يختار لها من هو مؤتمن عليها . وأما تذر فمعناها الترك مطلقا والرفض الكلي . ولا شك أن السياق يناسب هذا دون الأول فأريد بتشيع حالهم في الإعراض عن ربهم وأنهم بلغوا الغاية في الإعراض(١٥٠) .

وتناسق الإيقاع والمعنى يجتمع في فواصل القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إلى ثَمَرِهِ إذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١٥١) .

تنسجم في هذه الآيات النغمة مع المعنى وتتعانق الفواصل مع ما قبلها . وفيها ختمت الآية الأولى التي تشير إلى قدرة الله عز وجل في هذا الكون الفسيح بقوله : ﴿ يعلمون ﴾ ؛ إذ إن الاهتداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر أمر يختص بالعلم والعلماء . وختمت الآية الثانية بقوله ﴿ يفقهون ﴾ فجاءت الخاتمة مناسبة في أمر يحتاج إلى الدقة الشديدة ، لأن إدراك نشأة الإنسان من

---

(١٤٧) الحاقة : ٢٢ و ٢٣ .

(١٤٨) الصافات : ١٢٥ .

(١٤٩) هو أبو المعالي عبدالملك بن أبي عبدالله بن يوسف بن محمد الجويني ، الشافعي العراقي . شيخ الإمام الغزالي ، وأعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي ، صاحب كتاب « الشامل في أصول الدين » « والبرهان في أصول الفقه » : انظر : حاشية البرهان في علوم القرآن ٢٨١/١ و ٢٦٣/٢ و ١٠٣/٣ ، انظر : الصافات : ١٢٥ .

(١٥٠) انظر : البرهان في علوم القرآن : ٤٥٣/٣ .

(١٥١) الأنعام : ٩٧ – ٩٩ .

نفس واحدة وتطوره في مستقره في الأصلاب والأرحام مما يحتاج إلى فقه وتدبر . وختمت الآية الأخيرة بقوله ﴿ يؤمنون ﴾ بعد أن تحدثت عن نعم الله الجليلة التي أنعم بها على عباده ، وما أخرج لهم من الثمرات بالماء المنزل من السماء ، فاخضرت الأرض وتنوعت فوائدها ، ويستدعى المقام أن تختم الآية بالإيمان الداعي إلى شكر الله وحمده على نعمه الكثيرة التي لاتحصى .

ومما يروى في تناسق جمل الفواصل وإتمامها وورودها في موضعها ، أن الأصمعي كان يقرأ قوله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١٥٢) . فقرأ سهوا والله غفور رحيم فسمعه أعرابي كان معه فقال له . كلام من هذا ؟ فقال الأصمعي كلام الله . فقال الأعرابي : أعد فأعاد الأصمعي والله غفور رحيم . ثم تنبه فقال : «والله عزيز حكيم » فقال الأعرابي : الآن أصبت فقال الأصمعي : كيف عرفت . قال الأعرابي : يا هذا عزيز حكيم فأمر بالقطع . فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع(١٥٣) .

وروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أملى على زيد بن ثابت قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ ثُمَّ خَلقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ...﴾ فقال معاذ بن جبل : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ » فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال معاذ مم ضحكت يارسول الله ؟ قال : بها ختمت(١٥٤) .

وحكى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ : « فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم » . ولم يكن يقرأ القرآن ، فقال : إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه(١٥٥) . فهناك مؤاخاة معنوية في فواصل الآي فطن لها الأعرابي بذوقه السليم . وهذه المؤاخاة تتوافر في كل آية من آيات القرآن الكريم .

ندرك من هذا كله أن الآيات القرآنية اجتمعت لها كل صفات الجودة بالإيقاع والنغم المعجب المنبعث من تآخي الألفاظ والمعاني وتآلفها . فليس هناك نغم لا يتعانق مع المعنى ، فاقرأ على سبيل المثال لا الحصر سورة النجم من أولها إلى آخرها ، لتجد فيها نظاما توفيقيا من حلاوة الجرس واللفظ والمعنى . وتجد في هذه السورة ما يعرف عند البلاغيين بأسلوب السجع ، ولكن العلماء يقفون بين مؤيد ومعارض للقول بوجود السجع في القرآن . فالرماني والباقلاني مثلا ينفيان السجع في القرآن

---

(١٥٢) المائدة : ٣٨ .

(١٥٣) التفسير الكبير ، ٢٢٩/١١ .

(١٥٤) الإتقان : ١٢٩/٢ . ارجع لسورة المؤمنون : الآيات ١٢ - ١٤ .

(١٥٥) المصدر السابق . ارجع إلى الآية ٢٠٩ بالبقرة فقد ختمت بقوله تعالى ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ .

ويقولان إن بالقرآن فواصل ليست من السجع في شيء ، لأن السجع يقع في تكلف وصنعة في الكلام . ويطلق العلماء على نهاية الآيات لفظة «الفاصلة » استنادا على قوله ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ الآية(١٥٦) . ويرون أن الرسول صلى الله عليه وسلم كره السجع عندما قضى في جنين إمرأة ضربتها الأخرى فسقط ميتا ، بغرة في عاقلة الضاربة ، فقال رجل منهم : كيف ندى من لا شرب ولا أكل و لا صاح فاستهل ، ومثل دمه يطل . فقال صلى الله عليه وسلم : « إياك وسجع الكهان »(١٥٧) .

وأما الذين يقولون بالسجع أمثال ابن سنان الخفاجي وابن الأثير ويحيى بن حمزة العلوي فيرون أن السجع فيه المحمود وفيه المذموم . وأن سجع القرآن أعلى من كلام البشر ، وفي نظم من الكلام يؤدي إلى المعنى المراد دون تكلف أو قصد ، وينسجم فيه اللفظ والمعنى بالنغم . ويرون أن الرسول صلى الله عليه وسلم كره سجع الكهان ولم يكره مطلق السجع . يقول أبو هلال العسكري : ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعا لقال : أسجعا . ثم سكت(١٥٨) .

ويذكر الجاحظ في معرض حديثه عن الأسجاع ، وما هو متكلف وما هو مطبوع منها ، أن عبدالصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي قيل له : لم تؤثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ، فقال : إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكني أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع والأذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر من ما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ، و لا ضاع من الموزون عشره(١٥٩) .

نصل من ذلك كله إلى أن آيات القرآن بريئة مما يوصف به سجع الكهان . فلا مجال للمقارنة هنا – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – ففي سجع الكهان منغصات كثيرة تخرجه عن دائرة البلاغة ، فهو مذموم ولا يحقق الملاءمة بين اللفظ والمعنى وجرس الكلمات ، فيه من التكلف والصنعة . فاللفظ فيه يقصد لذاته ثم يحال المعنى عليه ، ويعتمد على الإيقاع الرنان والأسلوب الموهم الخداع ، فانظر إلى قولٍ لبعض الكهان : ... والأرض والسماء ، والعقاب الصقعاء واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بين العشراء ، للمجد والسناء(١٦٠) ... ما أقبح هذا الكلام وما أضعفه ، لا تناسب بين أصواته ، ولا علاقة بين ألفاظه ومعانيه . ضعف في التأليف ، وركاكة في التعبير ، وإكثار من

---

(١٥٦) فصلت : من الآية الثالثة .

(١٥٧) راجع : البيان والتبيين : ٢٨٧/١ .

(١٥٨) انظر : كتاب الصناعتين : ص ٢٨٦ .

(١٥٩) البيان والتبيين : ٢٨٧/١ .

(١٦٠) البيان والتبيين : ٢٩٠/١ .

التكرار الممجوج ، وخلو من المعاني القويمة الرصينة ، في الدرك الأسفل من الكلام .

والقرآن الكريم مقدس ومنزه عن النقص وعن أن يكون مشابها لكلام البشر ، وإن كان من جنسه في كلماته ، وحروفه ، فهو قد بلغ القمة في البلاغة ولا يقصد النغم فيه لذاته ، وإنما تدل نغماته على المعاني دلالة واضحة بحيث تجد ألفاظه مستقرة في موضعها مع المعنى المراد ، في تجانس وحلاوة واتزان مع النغم .

خاتمة

هذه دراسة موجزة عن الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم ، تؤكد أن القرآن معجز في نظمه البديع ، وتأليفه المتقن وتنسيقه وائتلافه في ألفاظه وجمله ونغمه الصوتي الذي تهتز له النفوس . وقد تضمن فنونا بلاغية عديدة خضعت في طريقة عرضها لأغراضه وتميزت بخصائص فنية قيمة . ولأجل ذلك كله فقد تمت – بحمد الله وعونه – مناقشة أشياء ثلاثة مهمة وهي : اللفظة المفردة ، والجملة ، والايقاع البديع ، لبيان مدى الاصابة في اختيار الألفاظ وتمكنها في موضعها من الجملة وارتباط الجملة بأجزائها ارتباطا حوى جميع المعاني المرادة ، وكان الحديث عن الإيقاع البديع لنصل به إلى أن القرآن الكريم ، في نظم بديع لا انفصام فيه بين المضمون والشكل والنغم ، فيما تعرض له من موضوعات .

ولذلك فإن الطالب لفهم القرآن ، عليه أن يدرك أن القرآن متفرد بتركيب فني ذي أبعاد صوتية ونفسية ، تتجاوب فيه الألفاظ والمعاني ، ولذا لزمه أن يتتبع ألفاظه ومعانيه والوقوف على مقاصدها . وينظر إلى دقائق الكتاب العزيز وحقائقه ، بمراعاة الوضع الحقيقي والمجازي ، ومراعاة الإعراب والتأليف . فالقرآن الكريم في القمة من الفصاحة والبلاغة . وله خواص في التراكيب وأسرار في الأساليب ولطائف في المعاني ، وله روعة وأثر في النفوس . وهذا ما أحسه العرب أيام نزوله الأمر الذي جعلهم يصفونه بأنه شعر وغير ذلك من النعوت . ولكن سرعان ما عاد بلغاؤهم وفصحاؤهم إلى العدول عن ذلك فيما يروي عن الوليد بن المغيرة أنه قال : « فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا . وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته »(١٦١) .

وعلى هذا لا مطمع لأحد مهما عظم حاله وفاق بيانه الإحاطة بجميع أسرار القرآن ومزاياه ،

---

(١٦١) الإتقان : ٢/١٥٠ .

وما فيه من عجائب الألفاظ ودقائق التعبير ، وما حوى من كنوز متنوعة . وكل ذلك يدل على شرفه وقمته وتفوقه على سائر الكلام بحيث لا يدانيه كلام .

المراجـــع

ابن الأثير ، ضياء الدين ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ج ١ ، الرياض : منشورات دار الرفاعي ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

الأصفهاني ، أبو القاسم الحسن بن محمد ، المفردات في غريب القرآن ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م .

الآمدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى ، الموازنة ، تحقيق محمد محيى‌الدين عبدالحميد ، مكتبة العلمية بيروت لبنان ، د.ت .

أمين ، أحمد ، النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣ .

الباقلاني ، القاضي أبو بكر ، إعجاز القرآن « بهامش الإتقان » ، بيروت : دار المعرفة ، د.ت .

بدوي ، أحمد ، من بلاغة القرآن ، مكتبة نهضة مصر ، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م .

البغدادي ، ابن ناقيا ، الجمان في تشبيهات القرآن ، الاسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٧٨م .

التفتازاني ، سعد الدين ، مختصر سعد الدين « ضمن شروح التلخيص » ، بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت .

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٧٥م .

الجرجاني ، عبدالقاهر ، أسرار البلاغة ، دار المعرفة ، بيروت : ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

________ ، دلائل الإعجاز ، بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م .

ابن الجوزي ، عبدالرحمن بن علي بن محمد بن جعفر ، منتخب قرة العيون والنواظر في الوجوه والنظائر ، الاسكندرية : منشأة المعارف ١٩٧٩م .

الحوفي ، أحمد محمد ، مع القرآن الكريم ، دار نهضة مصر ، ١٩٧١م .

أبو حمدة ، محمد علي ، من أساليب البيان في القرآن الكريم ، ط ٢ ، عمان : مكتبة الرسالة الحديثة ، ١٤٠٣/ ١٩٨٣م .

الخطابي ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ، بيان إعجاز القرآن « ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن » ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م .

الدامغاني ، الحسين بن محمد ، إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، ط ٢ ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٠م .

الدباغ ، مصطفى محمد زكي ، وجوه من الإعجاز القرآني ، ط١ ،مكتبة المنار ، ١٩٨٢ ، الزرقاء ، الأردن .

الدسوقي ، : محمد بن عرفة ، حاشية الدسوقي على شرح السعد « ضمن شروح التلخيص » ، دار الكتب العلمية ، بيروت – د.ت .

الدقيقي ، سليمان بن بنين ، اتفاق المباني وافتراق المعاني ، ط ١ ، عمان : دار عمار للنشر والتوزيع ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، عمان : دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان : ١٩٨٥م .

ـــــــــــ ، التفسير الكبير ، ط١ المطبعة البهية المصرية ، ١٣٥٧هـ/١٩٣٧م .

الرافعي ، مصطفى صادق ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، بيروت : دار الكتاب العربي ، د.ت .

الرضى ، الشريف ، تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ط ١ ، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

الرماني ، أبو الحسن علي بن عيسى ، رسالتان في اللغة عمان : دار الفكر للنشر والتوزيع ، ١٩٨٤م .

الزركشي ، بدرالدين محمد بن عبدالله ، البرهان في علوم القرآن ، ط ٣ ، بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر ، الكشاف ، بيروت : دار المعرفة ، د.ت .

الزملكاني ، كمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم ، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن الكريم ، تحقيق خديجة الحديثي وأحمد مطلوب ، بغداد : إحياء التراث الإسلامي ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م .

السبكي ، بهاء الدين ، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح « ضمن شروح التلخيص » ، بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت .

السيوطي ، جلال الدين بن عبدالرحمن بن أبي بكر ، الإتقان في علوم القرآن ، بيروت : دار المعرفة ، د.ت .

ـــــــــــ ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، القاهرة : دار الفكر العربي ، د. ت .

ـــــــــــ ، بغية الوعاة في طبقات النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ دار الفكر ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

شيخون ، محمود السيد ، الإعجاز في نظم القرآن ، ط١ ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

الصابوني ، الشيخ محمد علي ، صفوة التفاسير ، ط ٦ ، بيروت : دار القرآن الكريم ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

الطبري ، محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل القرآن ، مصر المحمية : المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، ١٣٢٧ .

عباس ، فضل حسين ، البلاغة فنونها وأفنانها ، ط ٢ ، عمان ، الأردن : دار الفرقان للنشر والتوزيع ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

عتيق ، عبدالعزيز ، علم المعاني ، بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٧٤م .

عرفة ، عبدالعزيز عبدالمعطي ، من بلاغة النظم العربي ، ط ٢ ، عالم الكتب ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م .

العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل ، كتاب الصناعتين ، ط١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

العلوي ، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم ، الطراز ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

ابن العماد ، محمد بن محمد بن علي ، كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر ، الاسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

القزويني ، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن شرح التلخيص في علوم البلاغة ، ط٢ ، بيروت : دار الجيل ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، الإيضاح « ضمن شروح التلخيص » بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت .

ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل ، تفسير القرآن العظيم ، ط ٢ ، بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبدالواحد ، القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م .

المغربي ، أبو يعقوب ، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح « ضمن شروح التلخيص » بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت .

مطلوب ، د. أحمد ، مناهج بلاغية ، ط١ الكويت : نشر وكالة المطبوعات ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

أبو موسى ، د. محمد ،خصائص التراكيب ، ط ٢ ، القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

ابن هشام ، جمال الدين أبو محمد عبدالملك ، السيرة النبوية ، تحقيق الدكتور سهيل زكاو ، ط ١ ، دار الفكر ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

The Miraculous Precision of the Rhetoric of Koran

MAHGOUB AL-HASSAN MOHAMED
Assistant Professor, Department of Arabic Language,
Faculty of Arts & Humanities, King Abdulaziz University

ABSTRACT. This is a brief study about the Koranic rhetoric highlighting its miraculous precision. The Koran exhibits an exactness and precision that no writer can imitate, let alone to surpass.

The writer seeks to prove this point by focusing on the Koranic lexemes as well as sentences, drawing attention to the melodious rhythm of the verses.

Many previous studies and books have dealt with the same subject but there are always linguistic gems to be extracted from the Koran